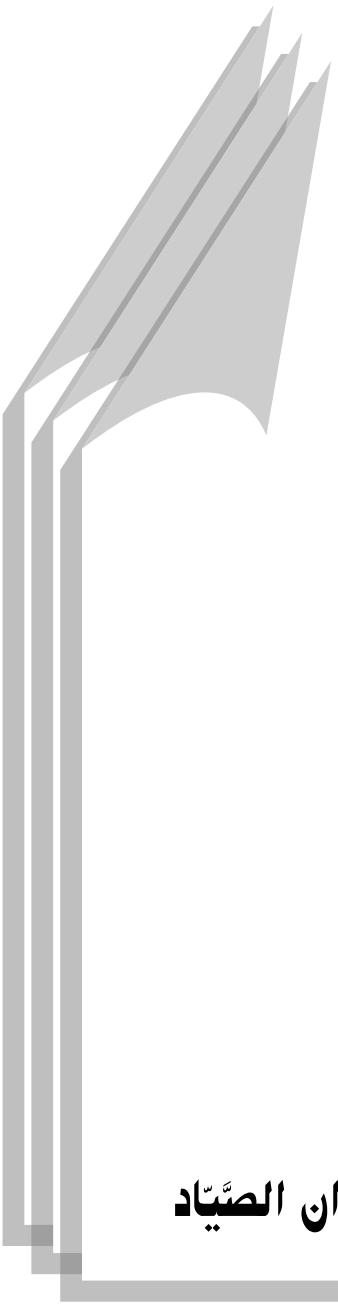

ديوان الصَّيّاد

ديوان الصَّيّاد

ܕܝܘܢ ܕܨܝܕܐ

الشماس رفو عطالله

(١٩٠٩ - ٢٠٠٣)

شاعر سرياني من القرن العشرين

ܫܡܫܐ ܪܦܝ ܥܛܐ ܐܠܗ

ܡܫܘܚ ܗܘܝܐ ܒܬܘܪܝܐ

إعداد

الأخ ياسر عطالله

إخوة يَسوع الفادي

قره قوش – العراق

٢٠٠٩

تنويه:

لا نقصُد بكلمة سُرياني أي نظرة طائفيّة ضيّقة أو دينيّة مُتزمّتة، ولا يُقصَد بها طَقس أو كنيسة مُعيّنة، مع أنَّ الشَّاعر يَنتمي إلى الكنيسة السُّريانيّة الكاثوليكيّة؛ بل نَقصُد كُلّ من ألَّفَ وكَتَبَ باللُّغة السُّريانيّة بحسب آدابها وقواعدِها، سواء كان الكاتب من السُّريان الغربيّين أو من السُّريان الشَّرقيّين.

صورة بغديدا الموضوعة في الغلاف هي من تصميم السَّيّد غاندي رياض وديع حبش، مأخوذة من موقع بغديدا (www.bakhdida.com)

التَّنسيق والإخراج: رواء موسى پوسا

تقديم

أجل.. آخر العُظماء من جيل الشَّمامِسة الكِبار قد تَوارى بِوفاة الشَّمّاس رَفّو عطاالله...

وليسَ جُزافًا أن يَتَغي تَخليدَه حَفيدُه الأخ ياسر نعيم رَفّو عطاالله، من رُهبان إخوة يَسوع الفادي، بِنشرِ نِتاجِهِ الشِّعري في كِتابٍ خَاصّ يَحملُ سيرَة حَياتِه ومآثرِه.. وكَأني بِهِ حَفيد يَشوع بن سيراخ يُميطُ اللثام عمّا تَرَكَهُ جَدُّه مِن حِكمةِ السّوالِف وخُبرة الأيام، فيُقدِّمها "لِلرّاغبين في التَّعلُّم لكي يَتَهذّبوا بِها ويَزدادوا حِرصًا" (مُقدِّمة سفر بن سيراخ). والأخ ياسر الّذي تَعَلَّم عِندَ أقدامِ جَدِّه الشَّيءَ الكَثير، عِرفانًا بِالجميل، أرادَ أن يُخلِّدَ ٱسمَ مَنْ كانَ يَدعوهُ في حياتِه "بابي روفو"، "فَيؤرِّخ سِيرَتَهُ وأعمالَهُ ليكونَ مَرجعًا لأحِبَّائِه وَوَطنِه ولِلتاريخ".

ديوان الصّيّاد إذن كِتابٌ ٱتّخذَ عِنوانَه مِنَ القَصيدة الشَّهيرة الّتي ألقاها الشَّمّاس رَفّو عطاالله عام ١٩٨٤، بِمُناسَبة احتِفالات اليوبيل المئوي السَّادس عشر لمار بهنام الشَّهيد، شَفيع دَير مار بهنام وشَفيع مَسقَط رأس الشاعر، يَضُمُّ بين دَفَتيهِ ما يُمكن دَعوتَه "ديوان رَفّو عطاالله الشِّعري". قَصائد كَتَبَها أو ألقاها الشَّمّاس المُفَوَّه بالسُّريانيّة في مُناسباتٍ عِدّة، رَسميّة وثَقافيّة وكَنسيّة، يَغلِبُ عليها الطَّابع الدِّينيّ والكَنسيّ والحِكَميّ. لُغةُ الشَّمّاس رَفّو لُغةٌ سَلِسَةٌ، سَهلةُ المنالِ عادَةً، ولكِنَّها لا تَخلو مِنَ التَّمرُّدِ على القاموسِ الرَّتيب والمُفرداتِ الأليفة، فتَسلُك المسالكَ العَنيدة، وتُطوِّع المُفردات اليونانيّة لمآربِها، كُلَّما أرادَ الشَّاعر الخروجَ بِقَصيدَتِهِ عن المُستَطْرَق. كما يَتَفَنَّن الشَّاعر بِطَرْقِ القافيةِ بأشكالِها، والأوزان بِأطوالِها، وإن غَلَبَ الوزن اليَعقوبي الأثني عشري، وبِتَنسيقِ قَصيدَتِهِ على الحروفِ الأبجَديَّة، حيثُ

يَبدأ كُلُّ بَيتٍ بِحَرفٍ أبجديّ التَّسلسُل، أو على أشهُرِ السّنة مُتتاليةً مع ذِكرِ المُناسَبة الدِّينيّة أو الكَنَسيّة المُحتَفلِ بها في هذا الشَّهر، أو بِختامِ كُلِّ بَيتٍ بالكلِمةِ ذاتِها. كما يحلو لَهُ، كأربابِ الشّعر السُّرياني المُتَمَكنينَ مِنَ اللُغة وألغازِها، بتأريخ قَصائِدِهِ بالقيمةِ العَدديّة لِلحروفِ التي يَقْفِلُ بها، لِيَنتُجَ من حاصِلِها تاريخُ الكِتابة.

الشَّمّاس رَفّو مُتَمَكِّن إذن مِن نَاصيةِ اللُغة السُّريانيّة، ومِن دروب الشِّعر السُّرياني أيضًا، كما لو كانَت أزِقَةُ قَريَتِهِ المُتقاطِعة التي أَلِفَها وآلَفَها مُنذُ نُعومَةِ أظفارِه، وعَلِمَ أسرارَ التواءَاتِها مُغمَضَ العَينين.

نُثني على جُهود المُعِدّ، الأخ ياسر عطاالله، على هذه الصَّفحة التي يُضيفُها إلى سِجلِ بَلدتِهِ بَغديدا، فيُغني كَترَها العَريق بدُررِ أحدِ أبنائِها الميامين. ونَتَمَنّى لِهذا الكِتاب الرَّواج الّذي يَليقُ بِهِ لِلتعريفِ بِعَلَمٍ مِن أعلامِ بَغديدا، نَفتَخِرُ بِهِ كإرثٍ مُشتَرَكْ، لا لأبناءِ البَلدة المُباركة حَسب، وهي مَنبعُ الكفاءاتِ والإبداع، بلْ لأبرشيّة الموصل السُّريانيّة كُلِّها، ولِكَنيسَتِنا السُّريانيّة عُمومًا.

الكِتاب، في كُلّ الأحوال، صَفحةٌ مُؤثِّرةٌ وَبَليغَةٌ، مِن تاريخِ بَغديدا.

+ المطران مار باسيليوس جرجس القس موسى

رئيس أساقفة الموصل وتوابعها للسُريان الكاثوليك

١ تشرين الأوّل ٢٠٠٩

توطئة

الحياةُ تاريخٌ وفِكرٌ نابضان. حَياةٌ تَفيضُ إمكانيّاتٍ مَخفيّةٍ في طيّاتِ الــزّمن السّائر. الزَّمن، هذا اللُّغز المُحَيِّر، الّذي قد لا نَهتمُ بمجراه في كُلِّ تَفاعُلاتنا الحياتيّة إلاّ عندما "تَحين السّاعة". فهل هذه التَّفاعلات مُقدَّرة مُسبقًا؟ أم أنَّها نِتاجُ شَيءٍ آخر؟ ويبقى سؤالُنا كيف تَرتَبط الأحداث معًا؟ حيرةٌ وَقَعنا بِها ولا زلنا. ولكــن الجواب يَبقى، بدون مواربة وبكُلِّ تَواضعٍ، "هكذا جَرتْ الأحداث يا...".

نَقفُ أمام لَحظَتِنا الّتي نَعيشها ونتساءَل كيف نَستطيع أنْ نَفهم معناها وأن نَعيشها بِملئِها؟ إنَّها مُجرَّد لحظة كيف نُمسك بِها، وهي نَفسها قد تُصبِحُ، مــع آنيّتها، ذكرى للماضي إذ كُنّا نُفكِّر أنْ تَكونَ رجاءً للمُستقبل.

لا يبقى لنا في النِّهاية إلاّ الذّاكرة. إنَّها تُنعشُنا وتَجعلُنا أكثرَ إنسانيّة. فهــي تأتي بالأحداث الموغِلة في التاريخ، رغمَ اختِلافِها وتَنَوّعها، وتَضعها أمام الإنســان علَّها تَمنحهُ شيئًا جديدًا. الذّاكرة هي هذا الرَّجاء الّذي يَتمنّاه الإنسان ويَجعل منه كائنًا يَسيرُ صَوبَ المُستقبل. إنَّها الحضور الإنساني في كُلِّ وقتٍ وآنٍ. ماضينا هو ذكرياتٌ ومُستقبلُنا أحلام، وبين هذا وذاك نَعيشُ الحاضر الّذي يضمُ في لَحظَةٍ ما الذِّكرى والحلم مَعًا.

يومَ وصَلني خَبرُ وفاة جدّي الشَّمّاس رَفّو، وقد تَعوَّدنا أنْ نُسمّيه **"بابي روفو"**، كنتُ حينها في بغداد، وقد أعادتني الذّكريات لأرزح تَحت ثقلِ سنين كَثيرة، أعرف تعدادَها ولا أعرف تفاصيلها. فعندما نُريد أن نَكتُبَ تاريخًا ما فإنَّنا نَصطدم بالكمِّ الهائل من السّنين، مع إنَّنا نَعتَقِدُ أنَّ سنواتِنا ليست بشيء. ولرُبما علينا أن نَفهمَ الزَّمن والوَضعَ الحضاري والثقافي الّذي عاشَ فيه الشَّخص الّذي نَعنيهِ، إذا أردنا فهمَ أو كِتابةَ تاريخِهِ، مع ما في ذلك مِن تَحفُّظٍ.

دَخلَ الشَّمّاس رَفّو الوجود في مَطلعِ القَرنِ العشرين، الّذي شَهدَ مُنعطفًا هامًّا في التاريخ البَشري بِما قدَّم الإنسان فيه لتاريخِهِ وحَضارَتِهِ من إمكانيّات واختراعات وتَقدُّم على كافةِ الصُّعد، وكذلك، في الوقت عَينه من البؤس والعُنف. فقد شَهِدَ خِلال النِّصف الأوّل من القرن العشرين حَربين عالَميتَين كبيرَتَين، وعاصَرَ نِزاعاتٍ وحروبًا إقليميّة ووطنيّة. عَرفَ نِهاية الإمبراطوريّة العُثمانيّة، وشهدَ نشوء الدولة العراقيّة الحديثة وقيام الحُكم الملكي فيه، وما تَلاها من أحداثٍ حتّى قيام الجمهوريّة. وذاقَ حروب العراق الأخيرة والحصار الجائر وتأثَّر بِها وكَتبَ عنها في قصائده، لكنَّه لَم يَشأْ أن يَرى بلده مُحتلاً.

ليس من السَّهل أنْ يَكتُبَ إنسانٌ تاريخ إنسانٍ آخر ويؤرِّخَ حِقبةً زَمنيّة ما؛ إنَّها لَموهَبَةٌ عَظيمة ونِعمَةٌ وبَرَكةٌ فهي ليست تاريخًا، أي سردًا للحوادث، بل هي تَحليلٌ وتَفسيرٌ لِتلكَ الأحداث.

لَم يَخطُر ببالي أنَّ موضوع كتاب الشَّمّاس رَفّو سَيكون بالصّورة الّتي عَمِلتُ بِها. فمنذ أنْ توفِيَ، كُلِّفتُ بعمل شيء يُؤرِّخ تاريخَهُ وأعمالَهُ ويَكون مَرجعًا لأحبائه ولوطنِهِ وللتاريخ. وقُلتُ في نفسي سيكونُ ذلك عَمَلاً سَهلاً، ولكن منذُ الخطوات الأولى وَجدْتُ أنَّ الأمر على غير ما ظَننتُ.

لم يَملكْ الشَّمّاس رَفّو أرشيفًا مكتوبًا ومُرتَّبًا، ما عدا سجلّه الّذي كَتبَ فيه بَعضًا من قَصائِدِه وبعضَ المواضيع الّتي أحبَّها، من تاريخ بغديدا خاصّة. وعندما أرشفتُ كُتبَ مَكتبَتِه المبعثَرةِ هنا وهناك، وخاصّة كُتب الفناقيث السَّبعة، هالَني عَددُ الأوراق المبعثرة في بواطن تلكَ الكُتب، القديمة منها والجديدة، ومنها ما كانَ شِبهَ تَالف، وأُخرى لا تَحملُ على القراءة بسبب شخابيطها، حتّى استغربتُ كيف لَم تتفكَّك تلك الكُتب.

فكانت المرحلة الأولى جَمع كُلِّ الأوراقِ وتَصنيف مَكتبَتِهِ وأرشَفتَها. فتَجمَّع عندي عَددٌ كَبير من الأوراق، وبَدأتُ، في مرحلة ثانيّة، في تَصنيفها بين قصيدةٍ ورسالةٍ ووَرقةِ عَملٍ ومُسَوَّدَةٍ وأوراقٍ شَخصيّةٍ... .

قام الأخ نويران ناصر البنّاء، مَشكورًا، بطباعة القَصائد السُّريانيّة الموجودة في الكُرَّاس ومن بَينها السُّباعية. وقامَت الآنسة سحر لبّو، مَشكورةً، في مَرحلة لاحقة بطباعة قسمٍ آخر من القَصائد من الأوراق المُبعثَرة. وأتْمَمتُ طِباعةَ قسم آخر من القصائد الّتي وَجدتُها هنا وهناك، بالإضافة إلى مُراجعة ما طَبعه الاثنان؛ كما أنجَزْتُ طِباعة القِسم الكرشوني من الصَّلوات.

وفي مرحلة تالية، قُمتُ بمُراجَعَتِها لتَصويبها وَوضعِ الحركات، لأنَّ كُلّ قَصائِدِهِ كانت غير مُحرَّكة، إلاّ ما نَدر، وحاولتُ فَهمَ المقصود مِنها ولِمَن تتوجَّه. وَوَضَعتُ المُسَوَّدَة الأولى لتَعليقات كُلِّ قَصيدةٍ، والهوامش الضروريّة من تَصويباتٍ وتَعريفٍ بالشَّخصيّاتِ والأحداثِ المذكورة في القَصائدِ. ثُمَّ قَسَّمتُ القصائدَ بحسبِ السَّنواتِ الّتي كُتِبَتْ بِها، وأعطيتُ لكلِّ قَصيدةٍ عُنوانًا خاصًّا بِها. لكني فضَّلتُ افتتاحَ ديوانه بالقَصيدةِ الّتي سَمَّيناها السُّباعيّة وقَصيدة الشُّهور. تَمَّت مراجعة كُلّ هذهِ القصائِد من قبل الأب قرياقوس البرطلي، والشَّمّاس بهنام دانيال، مَشكورَين، وأبديا مُلاحظاتِهما القيّمة على النص السُّرياني.

في مَرحلةٍ لاحقةٍ قُمتُ بتَصنيفِ كُلِّ الأوراق الأُخرى الّتي لَم تُدرجْ ضِمنَ القَصائد، وبَقيتْ في مَلفاتٍ خاصّة حتّى الانتهاء من القصائد. وكانت ثَمَّة رسائل موجَّهة، أو مُستلمة، وبطاقات دَعوة وتَهنئة في مُناسبات مُختلفة، وقد استعنتُ بها من أجل كِتابةِ الفصل الخاص بترجمة حَياته. وقد تَحدّثتُ في هذا الأمر مع أخيه السَّيّد حبيب إبراهيم عطاالله (١٩١٥)، وأُخته السّيّدة شَمَّة إبراهيم عطاالله (١٩٢٦)، بالإضافة إلى أبنائه.

وتَمَّت مُراجعة أخيرة في ضوء كَلّ الملاحظات والتَّنقيحات الّتي جَرت على الكِتاب والّتي تَكررّت عدّة مرّات.

قد يُقال أنَّ الكتاب تأخَّر، ولكن هذا التأخُّر جاءَ من أجلِ أنْ يَظهرَ بالصّورةِ المناسبة. أودُّ أنْ أشكُرَ المطران مار باسيليوس جرجس القس موسى لِمُراجعتِه وتقديمه الكتاب؛ ومَركزَ تَوثيق المخطوطات الشّرقيّة للآباء الدومنيكان، الذي تأسّس سنة ١٩٩٠ في الموصل، والّذي قامَ بتَوثيقِ كُلّ مَخطوطاتِ الشَّمّاس رَفّو؛ كما أشكُر الآنسة رواء موسى پوسا لقيامها بتنسيق الكتاب؛ وامتناني للمُهندس يوسف نعيم رَفّو عطاالله لتَصميمه وتَنفيذهِ غِلافَ الكتاب؛ وللمُهندس إقدام فاضل ياكو الّذي عَملَ على مُعالجةِ الزَّخارف الجداريّة الّتي وَضعها الشَّمّاس رَفّو بريشَتِه في غُرفةِ جُلوسه؛ ولكُلِّ من ساهمَ وشَجَّع ودَعمَ إصدار هذا الكتاب.

الأخ ياسر عطاالله

دَير يَسوع الفادي - قره‌قوش

١٤ أيلول ٢٠٠٩

عيد ارتفاع الصَّليب